

من أسباب الإمالة في اللهجات العربية مقاربة صوتية

د. بلقاسم ساعي

كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية

جامعة بسطة

تعدّ الإمالة ظاهرة من الظواهر الصوتية، وضرباً من ضروب التأثر الذي تتعرض له الألف عندما يُجسجُ بها نحو الياء، أو الفتحة حين يُمال بها نحو الكسرة. ويقابل مصطلح الإمالة الفتح، ولا يقتصر وجودها على قبيلة معينة. ولكنها نسبت في الغالب إلى قبيلة تميم كما نسب الفتح إلى الحجازيين.

الإمالة لغة تعني الانحناء أو الميل، جاء في لسان العرب أنها «العدول إلى الشيء والإقبال عليه وكذلك الميلان ... وألف الإمالة هي التي تجدها بين الألف والياء»¹. وجاء في معجم ألفاظ القرآن الكريم «مال عن الطريق يميل ميلاً: انحرف عنه يمينا أو شمالاً ويقال: مال عن الحقّ عدل عنه واتبع الباطل، وضلّ سواء السبيل».

وليس يخاف ما يقيد هذا التعريف اللغوي في تشكيل المعنى الاصطلاحي لدى النحويين وعلماء القراءات. من ذلك إشارة سيويه إلى ميل الألف نحو الكسرة بقوله «وإنما أمالوها، يعني الألف في عايد وعالم للكسرة التي بعدها، أرادوا أن يُقربوها منها... فالألف قد تشبه الياء فأرادوا أن يقربوها منها»³.

وتبعه الميرد بقوله: «الإمالة أن تنحو بالألف نحو الياء، ولا يكون ذلك إلا لعلّة تدعو إليه»⁴.

كما عرفها الزجاجي بأنها إمالة «الألف نحو الياء، والفتحة نحو الكسرة، نحو قولك: عالمٌ وعايدٌ ومساجدٌ ومقاتيحٌ وما أشبه ذلك»⁵. وجمع ابن يعيش بين التعريفين اللغوي والاصطلاحي في نص واحد مشيراً إلى مُخرج الألف حين العدول بها نحو الياء فقال: «اعلم أن الإمالة مصدر أمّلته أميلة إمالة، والميل: الانحراف عن القصد، يقال: مال الشيء، ومنه مال الحاكم إذا عدل عن الاستواء، وكذلك الإمالة في العربية عدول بالألف عن استوائه. وجنوح به إلى الياء، فيصير مُخرجه بين مخرج الألف المضممة وبين مخرج الياء»⁶.

وتحدث عنها من أهل الأداء ابن الجوري. فقال: «الإمالة أن تنحو بالفتحة نحو الكسرة وبالألف نحو الياء (كثيراً) وهو اغض. ويقال له الإضجاع. ويقال له الطح وربما قيل له الكسر أيضاً (و قليلاً) وهو ما بين اللفظين ويقال له التقليل والتلطيف وبين بين»⁷. وعليه يكون من معاني الإمالة التقليل. والتلطيف. وبين بين. وهي المصطلحات المتداولة بين القراء.

وذكر السيوطي أن ميل الألف نحو الياء يكون أكثر من انتحاء الفتحة نحو الكسرة⁸. وليس هناك تفاوت كبير بين التعريفات السابقة إلا ما كان من اقتصار بعضهم على ذكر انتحاء الألف نحو الياء. وجمع بعضهم بين انتحاء الألف نحو الياء. والفتحة نحو الكسرة.

ثم إن القول بأن الإمالة مصطلح يقابله الفتح قول تعوزه الدقة. لأن التعبير الأوفق هو أن الفتح تقابله الإمالة. وعلى كل حال فالمسألة خلافية قد تدعو إلى التساؤل التالي: أيهما الأصل أو الفرع. هل الإمالة هي الأصل والفتح فرع عنها أو العكس؟

لقد شغل القدماء بموضوع الأصلية و الفرعية في باب الإمالة، فهذا ابن خالويه عند بيان الحجة في قوله تعالى «وعلى أصبارهم»⁹. جعل «الحجة لمن فتح أنه أتى بالكلام على أصله. ووجهه الذي كان له لأن الأصل التفتحيم. والإمالة فرع عليه»¹⁰. والترجيح نفسه ذهب إليه ابن يعيش عندما قال: «والتفتحيم هو الأصل. والإمالة طارئة؛ والذي يدل على أن التفتحيم هو الأصل أنه يجوز تفتحيم كل مُمال. ولا يجوز إمالة كل مفتوح. وأيضاً فإن التفتحيم لا يحتاج إلى سبب والإمالة تحتاج إلى سبب»¹¹. وأثار هذه المسألة ابن الجوري مشيراً إلى اختلاف الأئمة في كون الإمالة فرعاً عن الفتح أو أن كلا منهما أصلاً برأسه، فذهب قوم إلى أصلتهما. ورجح آخرون الفتح. والإمالة فرع عليه بدليل أن هذه الأخيرة لا تكون إلا عند وجود سبب¹².

وقد عالج هذا الموضوع إبراهيم أنيس بطريقة علمية حديثة وبرأيه أن الإمالة أقدم في حالات والفتح أقدم في حالات أخرى¹³.

وهناك تفاوت بين النحويين وأهل الأداء في التعبير عن العنوان، فالنحويون لا يذكرون إلا الإمالة في الباب الذي يعالجونها فيه. في حين يطلق القراء أسماء مختلفة للباب منها: الفتح والإمالة، أو الإمالة والتفتحيم، أو الفتح والإمالة وبين اللفظين¹⁴.

والحديث عنها هو في الأساس من وضع القراء. أما التحويلات فلا يعرصون لذلك إلا ما كان من ابن يعرب الذي نقل عن القراء. واحتدى حدوهم¹⁵. وفي هذا السياق لاحظ برجشتو امر أن المقرنين وفوا الإمالة حقياً. لكن التحويلات لم يوقفوا إلى صسط حالتهما. وتقييد قواعدها¹⁶.

وما الإمالة والفتح عند المعاصرين من علماء اللغة إلا صوتان من أصوات اللين سواء أكانا قصيرين أم طويلين¹⁷. وبعض النظر عن مصطلح اللين عند القدماء، واخذين فإنه لا فرق بين إمالة الفتحة أو ألف المذ. لأن العملية العضوية في الحالتين واحدة¹⁸. وليس الفرق بينهما في الحقيقة إلا في المذ الصوتي. ذلك أن الفتحة الطويلة هي عبارة عن امتداد للفتحة القصيرة. ولعل الأمر الذي يبعث على الاهتمام عند المعاصرين من اللغويين هو تلك المقاييس التي وضعوها للإمالة أو الفتح من خلال حركات بعض أعضاء النطق لأن «اللسان مع الفتح يكاد يكون مستويا في قاع الفم، فإن أخذ في الصعود نحو الحنك الأعلى بدأ حينئذ ذلك الوضع يسمى بالإمالة»¹⁹.

لقد قسم القدماء الإمالة إلى نوعين بارزين هما: الإمالة الشديدة والإمالة الخفيفة. وأشار سيويه إلى النوع الأول في ثنايا حديثه عن الحروف المستحسنة في قراءة القرآن والأشعار²⁰. أما النوع الثاني فيتعلق بالوقف على هاء التانيث وهو ما استنتجه ابن الجوزي من وقوف الكسائي على هاء التانيث وما ضارعتها في اللفظ بالإمالة نحو قوله تعالى: ربوة²¹.

وقد اهتم المعاصرون بهذا التقسيم وعللوه صوتياً، ولاحظوا أنه كما يُمال الفتح إلى الكسر في مثل: بيع، يُمال كذلك الفتح إلى الضم. كما هو الشأن في ألفاظ الصلاة. الرِّكَاة، قَوْل، لكن الإمالة الشائعة هي الفتح إلى الكسر. والتي نالت اهتماماً واسعاً من القراء.

كما تجدر الإشارة إلى فرق واضح «بين وصف القراء للإمالة، ووصف المحدثين هاء القراء بتبهيون على المعيب وعلى غير المعيب، في حين أن المحدثين يصفون هذه الظواهر ويسجلونها معترفين بما جمعاً من غير تفریق»²².

والظاهر أن هذا الاعتراف الذي يقر به المحدثون هو من نتائج وفضل تطبيقات المنهج الوصفي الذي يسجل الواقع اللغوي كما هو.

ويمكن التساؤل عن القبائل المميلة. أهي قبائل يعنيها أم أنها تشمل كل القبائل ولكن بدرجات متفاوتة.

من الصعوبة بمكان حصر القبائل التي كانت تؤثر الإمالة. ذلك أن هذه الظاهرة الصوتية وصلت منطوقة. وذلك « بسبب انقفاء علامة حطية إمالية تدلّ عليها، ويدعو إليها تقريب الصوت من الصوت»²³. وعدم وجود إشارة حطية أو إمالية تدلّ عليها وتسهل اكتشافها بعزوه بعضهم « إلى أن الإمالة لم تكن لغة أكثر العرب بل كانت في أقلهم لهذا لم يهتم بها العلماء المقعدون»²⁴.

ومن جهة أخرى فإن القانمين على جمع وتدوين اللّغة لم يعيروا هذا الجانب اهتماما كبيرا. وكان همّ الواحد منهم التّقل إلى البادية وجمع اللّغة كيفما اتفق من دون عزو إلى قبائل يعنيها. ومع ذلك هناك روايات مؤنّقة تنسب الإمالة إلى أهل الحجاز مع أنهم عرفوا بالفتح والتفخيم، فقد ذكر سيويه «أن الحجازيين يميلون في مواضع قليلة»²⁵. والشائع أن «الإمالة لغة بني تميم، والفتح لغة أهل الحجاز»²⁶. ولأنه لا تكاد تذكر الإمالة إلا مفرونة بقبيلة تميم. ذلك أن «تميما كانت تنطق بعض الفتحاح في لسان قريش ممالة إلى المكسرة. وهو ما عُرِف في النّدراسات اللّغوية قديما وحديثا باسم ظاهرة الإمالة»²⁷.

والمعروف أن تميما قبيلة بادية. ونسبة الإمالة إليهم يرجع «إلى أن أهل البادية يميلون في كلامهم إلى الاقتصاد في الخيود العظلي، والإمالة تحقق لهم ذلك بما فيها من انسجام في الأصوات»²⁸.

وللمصمّلين أسباب تدعوهم إليها منها ما يتعلق بتحقيق الانسجام الصوتي، ومنها ما يتصل بنشيدان الحفّة ودفع الاستسقال تيسرا على المتعلمين، ومنها ما أملاه التعصب الأعمى. ومنها ما أحدثه الصراع العلمي. ومنها ما كان من المرواح وتأثير البيئة، ومنها ما يرتبط بالفاظ معينة، وعادات لغوية.

ولعلّ أهم سبب مرجعه إلى النظام الصوتي في اللّغة كإمالة الألف لألف ممالة قبلها فقالوا: «كثبت كتابا، أجروا الألف الممالة مجرى الباء لقرئها منها، فأجرحوا الألف الأخيرة نحو الباء، والفتحة قبلها نحو المكسرة، كما فعلوا ذلك فيما قبلها من الألف والفتحة، والغرض من ذلك تناسب الأصوات وتقارب أجراسها»²⁹.

والإمالة ظاهرة صوتية يدعو إليها تقريب الصوت من الصوت مثلها مثل ظاهرة الإدغام. ولعل الباعث على هذا التقريب هو الوصول إلى ما يسمى بالانسجام الصوتي الذي من دواعيه الاقتصاد في الجهد العضلي. وهذا الاقتصاد يميل إليه الإنسان من غير عمد.³¹

تحدث سيويه عن هذه الظاهرة وعلمها بالخفة. ليكون عمل اللسان من وجه واحد³¹. وتلاه ابن حني متحدثاً عنها في باب الإدغام الأصغر وقال بأنه كثيراً ما يكون على حساب الإعراب وعبارة « قال بعضهم: وقال أصرب الساقين إمتك هابل »³². والشاهد فيه كسر الميم اتباعاً للهمزة. وهذا النوع من التناسب دعاه ابن يعيش بالمشاكلية بين الألفاظ. ولذلك فقد أمالوا الضحى في قوله تعالى « والشمس وضحاها » مع أن القياس بأبي الإمالة في كلمة الضحى؛ لأنه من الواو. وليس فيه كسرة. وإنما أمالوه حين قرن بجلاهما ويعشاها³³.

والإمالة الناتجة عن التناسب الصوتي « حين تكون نتيجة انسجام بين أصوات اللين كما في إمالة (كتاب) فنلك صفة كانت أكثر شيوعاً في القبائل البدوية منها في المتحضرة »³⁴. والجنوح بالفتحة نحو الكسرة فيه شيء من إزالة الثقل وإبعاده بسبب تقريب الأصوات. يرى ابن حني أن « الإدغام الأصغر هو تقريب الحرف من الحرف وإدناؤه منه. وهو ضروري فمن ذلك الإمالة وإنما وقعت في الكلام لتقريب الصوت من الصوت وذلك نحو: عالم. وكاتب. وسقى »³⁵.

وقد عدل ابن يعيش الاستشقال. وطلب الخفة تعليلاً صوتياً بالاعتماد على مخارج الحروف. قال « قرَّبوا الألف من الياء: لأن الألف تُطلب من القم أعلاه. والكسرة تُطلب أسفله وأدناه فتنافرا، ولما تنافرا أصبحت الفتحة نحو الكسرة. والألف نحو الياء فصار الصوت بين يمين، فاعتدل الأمر بينهما وزال الاستشقال بالتنافر »³⁶.

وقد يكون من دواعي الإمالة التعصب أو الصراع العلمي؛ لأن هناك من الباحثين من عد احتفاظ البدو بظاهرة الإمالة من باب التعصب ومن استنباطاته أن قبائل الحجاز التي عُرف عنها الفتح قد قطعت مرحلة أخرى في تطور فجاتها. إذ انتقلت من الإمالة إلى الفتح. وكذا الأمر بالنسبة للهجات لبعض القبائل في وسط الجزيرة وشرقها. فقد احتفظت بمرحلة

الإمالة التي هي أقدم حين تكون الياء أصلية في الكلمات، ولعل السرّ في احتفاظ البدو بهذه الظاهرة هو أنهم عرفوا بها فعصروا لها³⁷.

ويندرج فيما يسمى بالصراع العلمي ما كان بين البصرة والكوفة من خلاف ومغايرة. فقد اتخذت البصرة طريق القنح في معظم المواضع حتى لا تشبه الكوفة في إمالتها³⁸. وجرى الكوفيين إلى الإمالة فيما يلهجون بغية المغايرة حتى يحققوا ما يسمى بالخلاف بينهم وبين البصريين فيه شيء من العسف، لأن هذا التعليل قد يعارض مع السليقة التي فطر عليها الإنسان.

وقد تحدث الإمالة بسبب تأثير البيئة ما هذه الاحيرة من دور في تكوين العادة اللغوية لدى الإنسان. ومما يدل على ذلك أن اسم الكسائي قد تردّد كثيرا في باب الإمالة وكذا حمزة، وكلاهما يُنسب إلى القراء والنحويين. والمعروف عنهما أنهما عاشا في الكوفة وتأثرا بيئتها³⁹.

وقد يكون تأثير البيئة بسبب الترواح أو الهجرات. كما هو الشأن بالنسبة للبهجة نجد التي أثرت في إقليم الشام بعد الترواح إليه. ونجد أصحاب إمالة⁴⁰ وتأثير السحدين في إقليم الشام انتقل إلى الأندلس؛ ذلك أن أهل غرناطة يقولون: (كيب) بدلا من (كتاب). والسبب بدلا من الباب⁴¹.

وحدث أن طلب أحد المسافرين وهو بارض الأندلس تذكّرة سفر باتجاه مكان اسمه (دانيه). وتلفظ بها (Dania) من دون إمالة. فلم يفهموا ماذا يريد. حتى ردّ أحدهم وقال له هي (Dénia) لا (Dania)⁴².

وهناك كلمات أميلت لا لشيء إلا لكثرة استعمالها وتداولها بينهم مثل لفظة الحجاج قال سيبويه في رجل حجاج « لأنه كثر في كلامهم فحملوه على الأكثر؛ لأن الإمالة أكثر في كلامهم. ولا يميل ألف حجاج إذا كان صفة يجرونه على القياس»⁴³.

وتبعه المراد بقوله « لم يجيروا الإمالة في رجل حجاج. لأنه لا شيء يوجبها ولكنهم أمالوا الحجاج للفصل بين المعرفة والتكرة والاسم والنعته؛ لأن الإمالة أكثر في كلامهم»⁴⁴. ومثل ذلك لفظة الناس وسبب إمالتها كثرة الاستعمال⁴⁵.

ومن الأسباب التي عرّض لها الباحثون أن الإمالة لا تعدو أن تكون عادة من العادات اللغوية التي يتوارثها الخلف عن السلف، دونما شعور بها. وكان من واجب النحويين أن

يقولوا إن الإمالة لا مفر منها عند تلك القبيلة التي تميل. والقبح واجب عند من لا يستطيعون غيره¹.

ويستحسن مما سبق أن الإمالة ظاهرة صوتية شغلت أبحاث القدماء والمحدثين من النحويين والقراء، ودعت إليها أسباب متنوعة منها ما يعود إلى الانسجام الصوتي طلباً للخفة والتيسر على المتعلمين ومنها ما يعود إلى العصب أو الصراع العلمي وتأثير البيئة. ومنها ما يعود إلى كثرة تداول ألفاظ معينة أو هي عادة من العادات اللغوية.

المواضع:

- ¹ ابن منظور. لسان العرب. يوسف حياط. دار لسان العرب. بيروت. لبنان. د. ت. مادة (م ي ل).
- ² مجمع اللغة العربية بالقاهرة. معجم ألفاظ القرآن الكريم. الهيئة المصرية العامة للكتاب والنشر.
- 1970 عادة (م ي ل). 2 671
- ³ سيويه. الكتاب. تحقيق عبد السلام محمد هارون. مكتبة الخانجي. القاهرة. ط 2. 117/4.
- ⁴ الميرزا. المقضب. تحقيق محمد عبد الخالق عطية. عالم الكتب. بيروت. لبنان. د. ت. 24/3.
- ⁵ الزجاجي. الحمل. تحقيق ابن أبي شيبه. الجزائر. 1957. ص 36.
- ⁶ ابن يعيش. شرح المفصل. مكتبة الشبي. القاهرة 9 53-54.
- ⁷ ابن الجوزي. النشر في القراءات العشر. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. 2/30.
- ⁸ السيوطي. الإقتان في علوم القرآن. دار الفكر. بيروت. لبنان. د. ت. 1/93.
- ⁹ القرطبي. 9.
- ¹⁰ ابن خالويه. الحجة في القراءات السبع. تحقيق عبد العال سال مكيه. دار الشروق. ط 4 بيروت. القاهرة. 1981. ص 36.
- ¹¹ شرح المفصل. مرجع سابق. 2 54.
- ¹² النشر. مرجع سابق. 2/32-31.
- ¹³ عده الزجاجي. اللهجات العربية في القراءات القرآنية. مكتبة المعارف. ط 1. الرياض. ص 163.
- ¹⁴ عبد القناح إسماعيل شبي. الإمالة في القراءات واللهجات العربية. دار هضبة مصر. ط 2. ص 39.
- ¹⁵ المرجع نفسه. ص 36.
- ¹⁶ برجنتير اسر. التطور النحوي للغة العربية. تصحيح وتعليق رمضان عبد التواب. مكتبة الخانجي. القاهرة. ودار الرفاعي. 1982. ص 59.
- ¹⁷ إبراهيم أنيس. في اللهجات العربية. مكتبة الأنجلو المصرية. ط 3. ص 64.
- 18 المرجع نفسه. ص 64.

- 19 نفسه، ص 64
- 20 الكتاب، 4/ 432
- 21 ابن الخوري، تحرير التفسير في قراءات الأئمة العظمى، دار الوعظ، حلب، 1972، ص 46
- 22 الإيمانية في القراءات والليجات العربية، ص 46
- 23 أحمد علم الدين الحدي، الليجات العربية في التراث، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1978، ص 275
- 24 قطبي الطاهر، بحوث في اللغة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1990، ص 9
- 25 الكتاب، 4/ 118
- 26 شرح المفصل، 9/ 54
- 27 عبد الصبور شاهين، في علم اللغة العام، مؤسسة الرسالة، ط3، بيروت، 1980، ص 228
- 28 الليجات العربية في القراءات القرآنية، ص 168
- 29 السيد يعقوب بكر، نصوص في النحو العربي، دار النهضة العربية، 1971، ص 99
- 30 الليجات العربية في التراث، 1/ 276
- 31 الكتاب، 4/ 129
- 32 ابن حني، الخصائص، تحقيق محمد علي السجاني، دار الكتب المصرية، ط2، القاهرة، د.ت، 2/ 145
- 33 شرح المفصل، 9/ 64
- 34 في الليجات العربية، ص 91
- 35 الخصائص، 1/ 141
- 36 شرح المفصل، 9/ 55
- 37 في الليجات العربية، ص 66/ 67
- 38 المرجع نفسه، ص 77
- 39 الليجات العربية في التراث، 1/ 285
- 40 المرجع نفسه، 1/ 288
- 41 نفسه، 1/ 288
- 42 نفسه، 1/ 288
- 43 الكتاب، 4/ 127
- 44 المقضب، 3/ 51
- 45 الإيقان، 1/ 94
- 46 في الليجات العربية، ص 69